

اسْتِخْرَاجُ الْجَدَلِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِابْنِ الْحَنْبَلِيِّ

تَحْقِيقُ الدُّكْتُورِ مُحَمَّدٍ الْحَبِيبِ (الهِلَّة)



لئن اهتمَّ الباحثون المعاصرون بالكثير من قضايا علوم القرآن ومسائلها فإن من بين الموضوعات التي ما تزال تحتاج الى فضل من بحث وزيادة من نظر موضوع الجدل في القرآن. وهو أمر يعود أساساً الى قلة عدد الكتب القديمة المصنعة في الموضوع والواصلة الينا، ثم يعود الأمر من ناحية أخرى الى توزُّع عناصر الجدل في القرآن وتشتُّتها بين التفاسير الكثيرة وكتب الكلام المتعددة^(١). والكتاب الذي بين أيدينا - على صغره - يقدم لنا صورةً منهجية التأليف في جدال القرآن في النصف الأول من القرن السابع الهجري. فهو كتاب استخراج الجدل من القرآن الكريم تصنيف الشيخ ناصح الدين بن الحنبلي.

ترجمة المؤلف

هو عبد الرحمان بن نجم بن عبد الوهاب بن عبد الواحد بن علي الأنصاري الخزرجي السعدي العبادي الشيرازي المعروف بابن الحنبلي اشتهر بلقب ناصح الدين بن الحنبلي^(٢).

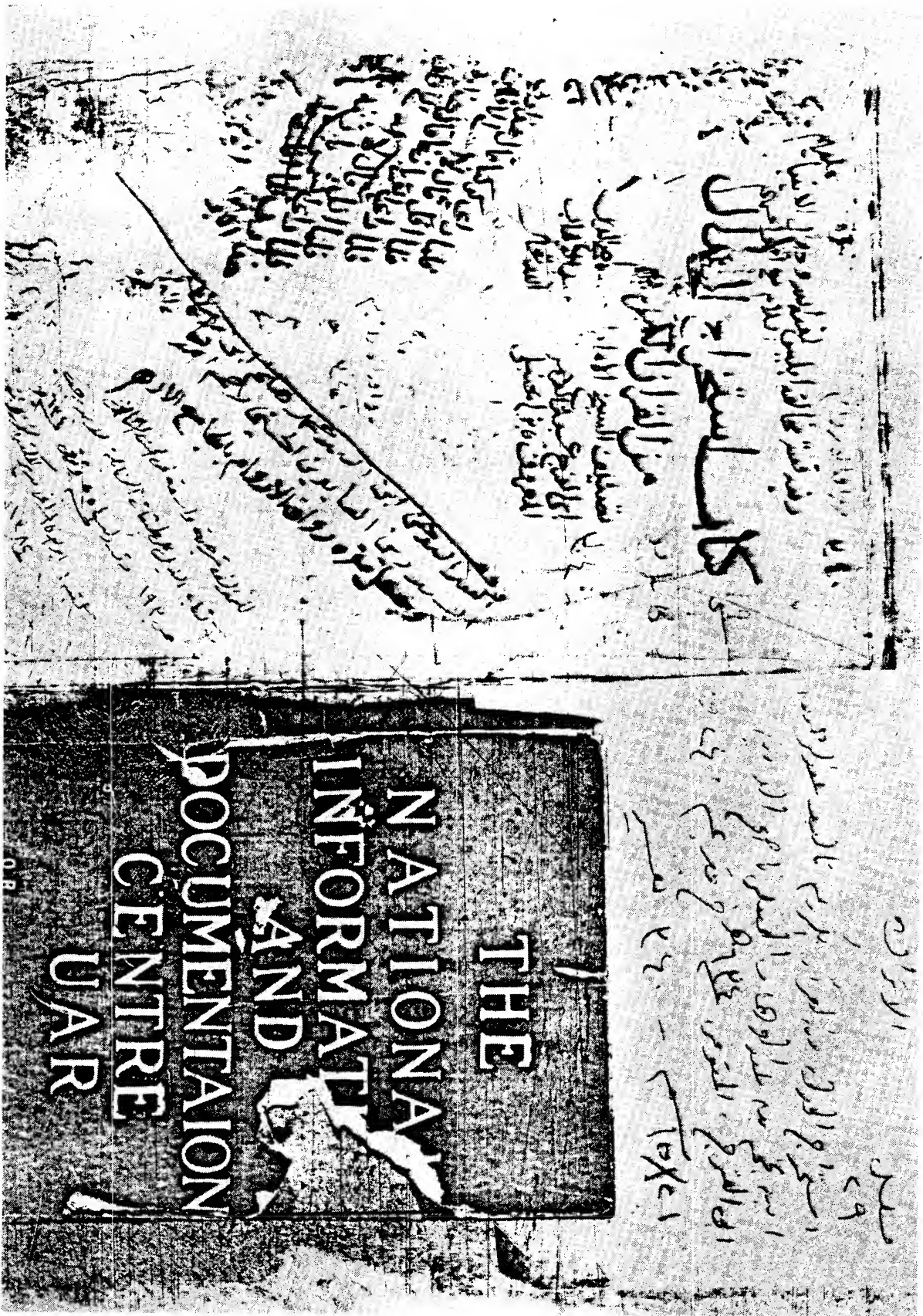
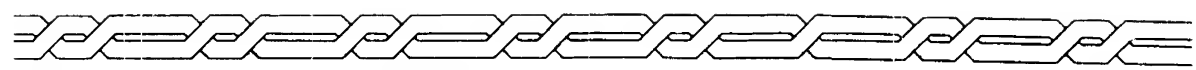
ولد بدمشق ليلة الجمعة ١٧ شوال سنة ٥٥٤ هـ.

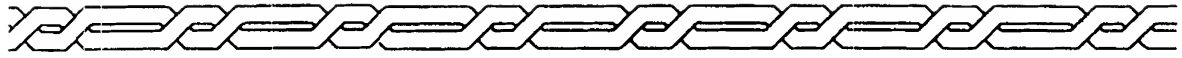
وهو من عائلة تنسب الى سعد بن عبادة

اشتهرت بالعلم والفقه على المذهب الحنبلي. فقد وصفت المصادر والده وأعمامه وجده وجدَّ والده وأخوانه وابنه وكثيراً من أفراد عائلته بالاهتمام بالحديث والفقه.

فاعتبر والده نجم الدين أبا العلاء شيخ الحنابلة بالشام في وقته، وذكر أنه ولد سنة ٤٩٨ هـ وأفتى ودرّس وهو ابن نيف وعشرين سنة وله اجازات من كبار العلماء كالزّاغوني، وكان محترماً معظماً عند العامة وأهل العلم والملوك. خرّج له

(١) تناول الموضوع من القدماء: الزركشي في كتابه البرهان ٢: ٢٤ والسيوطي في الاتقان ٢: وغيرهما. ومن المعاصرين أبو زهرة في كتابه المعجزة الكبرى القرآن ص: ٣١٣-٣٥٠: ومَناع القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن، ص ٩٦-٣٠٤، وخليل أحمد خليل في كتابه جدلية القرآن وغيرهم. (٢) ترجمه ترجمة واسعة ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة ج ٢ ص ١٩٣-٢٠١، وابن العماد في شذرات الذهب: ٥: ١٦٤-١٦٦، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦: ٢٩٧، والنعمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس ٢: ٦٨-٨٢، ١١٦، ١٩١، ٢٠١ والزركلي في الاعلام ج ٤ ص ١١٦ والبغداد في هدية العارفين ج ١: ٥٢٤، وكحالة في معجم المؤلفين ج ٥: ١٩٧. وعلى هذه المصادر والمراجع اعتمدنا في التعريف به.





يساميه في حياته».

تولى ناصح الدين الحنبلي التدريس بعدة مدارس منها مدرسة جده شرف الدين عبد الوهاب الحنبلي وهي المعروفة بالحنبلية الشريفة، وبالمدرسة المسمارية مع أبي المعالي بن المنجي ووجيه الدين بن أسعد، وبعد وفاة ابن المنجي استقل بها وحده الى سنة ٦٢٥ هـ حيث عاد بنو المنجي الى الاستقلال بهذه المدرسة.

وفي سنة ٦٢٨ هـ بنت صاحبة ربيعة خاتون أخت صلاح الدين الايوبي مدرسة بجبل الصالحية وسميت بالمدرسة الصاحبية وفتتها على الناصح والحنابلة بتوجيه من الشيخة العالمة المؤلفة أمة اللطيف بنت الصالح الحنبلي. وفي يوم افتتاح الدروس بها حضرت الواقعة الصاحبة المذكورة وراء الستر وكان يوماً مشهوداً^(٢). وبقي يدرس بها الى أن توفي.

أما تلاميذ الناصح الحنبلي فكثيرون، منهم خالد النابلسي، والحافظ بن النجار وعبد الصمد بن أبي الجيش، وعماد الدين بن السفاري، وجمال الدين الدينوري، ومحمد بن العز بن شرف الانصاري وغيرهم.

وذكرت المصادر التي ترجمت للناصر الحنبلي أنه ألف:

١- كتاباً في تاريخ الوعاظ.

٢- كتاب الاستسعاد في من لقي من صالح

وسمع بهمدان من أبي محمد عبد الغني بن الحافظ أبي العلاء وغيره. وسمع بمكة وغيرها.

وسمع بالموصل من الشيخ أبي أحمد الحداد الزاهد شيئاً من تصانيفه.

ودخل بلاداً كثيرة، واجتمع بفضلائها وصالحيتها، وفاوضهم، وأخذ عنهم، وقدم مصر مرتين. وأقام ببغداد مدة يشتغل على أبي الفتح ابن المنى. وقرأ على أبي البقاء العكبري «الفصيح» لثعلب من حفظه، وبعض التصريف، وأخذ الكمال السنجاري، والبهجة الضرير، النحويين. واشتغل بالوعظ، وبرع فيه. ووعظ من أوائل عمره، وحصل له القبول التام.

وقد وعظ بكثير من البلاد التي دخلها، كمصر، وحلب، وأربل، والمدينة النبوية وبيت المقدس، وكان له حرمة عند الملوك والسلاطين، خصوصاً ملوك الشام بني أيوب.

وقدم بغداد في سنة اثنتي عشرة وستمائة. وأكرمه الخليفة الناصر. وأظنه وعظ بها هذه السنة، وحضر فتح بيت المقدس مع السلطان صلاح الدين^(١).

وكان الناصح محل تقدير واعجاب من السلطان صلاح الدين. واحتل مكانة عالية في الحديث والفقه حتى قال عنه ابن رجب «انتهت اليه رئاسة المذهب بعد الشيخ موفق الدين وكان

(١) ابن رجب: طبقات الحنابلة ٢: ١٩٥-١٩٦.

(٢) الدارس ٢: ٧٩-٨٢.



العباد (في التراجع)^(١).

٣- كتاب الانجاد في الجهاد.

٤- مقامات.

٥- خطبا.

ولم نجد في المصادر ما يشير الى كتاب: استخراج الجدال من القرآن الكريم، ولا الى كتابيه اللذين ذكرهما في نص كتاب استخراج الجدال وهما: كتاب الحجّة العظمى، وكتاب البروق.

وفي يوم السبت الثالث من شهر المحرم سنة ٦٣٤ هـ توفي الناصح الحنبلي بدمشق ودفن بالمدرسة الصالحية التي بنيت له ولم يدفن في مقبرة عائلته الواقعة في سفح جبل قاسيون وهي المسماة بصفة الشهداء.

وقد وصفه الذهبي بأنه (كان حلو الكلام، جيد الإيراد، شهماً مهيباً، وكان رئيس المذهب في زمانه). كما وصفه ابن النجار بالادب وحسن الأخلاق.

مخطوط كتاب استخراج الجدال من القرآن الكريم

لم نجد للكتاب ذكراً في أي مصدر من مصادر ترجمة الناصح الحنبلي. ولم تذكره معاجم الكتب ككشف الظنون لحاجي خليفة، وإيضاح

المكنون للبغدادى.

منه نسخة بالمكتبة الأزهرية تحضّلت على صورتها بتفضّل من المشرفين على مركز البحث العلمي وحياء التراث الاسلامي بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية التابعة لجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة وهو من الكتب الموقوفة على رواق الاروام بالأزهر الشريف برقم ٣٤٠ (تفسير) وهي مخطوطة قديمة تقع في أربع وعشرين ورقة.

مقاسها ٢١ × ١٥

عدد الأسطر ١٩.

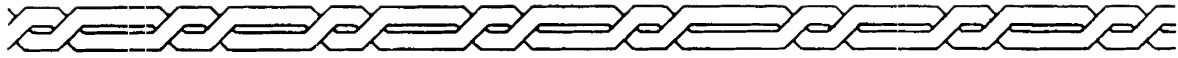
الخط: شرقي قديم.

نسخها أبو عبد الرحمان الحنبلي من نسخة كانت على ملك القاضي شمس الدّين أبي عبد الله محمّد بن أحمد بن ابراهيم القرشي سمعها منه مباشرة وكتبها لشيخ من شيوخه لم نعرفه لأنّه وقع محو اسمه من آخر المخطوطة. واذا عرفنا أنّ القاضي محمّد بن أحمد القرشي توفي سنة (٧٤١ هـ = ١٣٤٠ م) أدركنا أنّ النسخة كتبت في منتصف القرن الثامن^(٢). وعلى الصفحة الأولى تملّك نصه: دخل في ملك الفقير... مصطفى ابن عصفور.

وعليها أيضاً نصّ تحبّيس هو: «وقف الفقير السيّد حسن بن السيّد محمّد هاشم بن السيّد زين العابدين الحسيني رحمه الله. وجعل مقرّه رواق الأروام بالجامع الأزهر».

(١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١: ٧٨.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة: ٢.



ونص الوقف نجده معاداً في الورقات :

٤(أ)-٨(أ)-٩(أ)-١١(أ)-١٨(أ)-١٩(أ) -
٢١(أ) .

وفي نهاية المخطوط ورقة ٢٤ (أ) تاريخ
الوقف وهو (غرة المحرم سنة ١١٣٠ هـ).

وفي ورقة العنوان أيضاً إشارة لترجمة المؤلف
في ذيل طبقات الحنابلة كتبها أبو الوفاء المراغي
مدير المكتبة الأزهرية سنة ١٣٨٢ هـ.

نص كتاب

استخراج الجدل من القرآن الكريم

تأليف ناصح الدين الحنبلي

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم وأعن يا كريم

[١ - ب]

قال الشيخ الإمام^(١) ناصح الدين أبو الفرج
عبد الرحمان بن نجم بن عبد الوهاب
الأنصاري بن الحنبلي:

الحمد لله الحاوي كتابه أنواع العلوم،
الدال أمره على الموجود والمعدوم، المشرف
خطابه لذوي العقول والعلوم، الضارب الأمثال
لأرباب الألباب والفهوم، القاضي بالحق
الفاصل بين الظالم والمظلوم، يوم اجتماع
الخصوم، مبرم الأمور بقضاء محتوم، منزل
الماء بقدر معلوم، ومعلم الإنسان البيان في
الأمر المظنون والحكم المجزوم، شارع
السبيل المأمون من الكتاب المصون على

لسان النبي المعصوم.

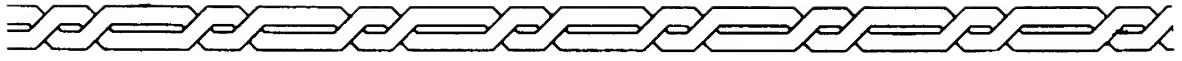
أحمده حمداً غير منقوص ولا مهضوم،
وأومن به إيماناً غير مظنون ولا موهوم. وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تقي
حر نار السموم، وتفي بتكفير ذنب المأثوم.
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الحاكم بشرعه
على كل حاكم من البرية ومحكوم، المفضل
جمعه على كل مفرد من الخلق ولموم، صلى
الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين لا تحصى
فضائلهم بمنثور ولا منظوم، ولا تجهل مآثرهم
إلى يوم الوقت المعلوم.

وبعد، فإن الفقهاء - رضي الله عنهم -
أرباب [النظر]^(٢)، المحرزين أدلة العبر، قد
ألقوا في مذاهب الجدل، ما ينضمّن تحرير
الاستدلال، ويقرئ الجواب والسؤال، إلا أن
الأمر الإصطلاحي منقوض بمثله، وربما نسخ
اصطلاحاً بوغره عند قوم أو بسهله،
والمذهب الذي يرسخ ولا ينسخ، ويعلو فرعه
ويشمخ، ما كان مجناه من حياة القلوب،
وسقيه من الشراب الطهور المنقى من
العيوب، الكاشف لأسرار الغيوب، ﴿لَا يَأْتِيهِ
الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ
حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٣). وقد استخرت الله تعالى في
استنباط طريق من طرقه، واسكان بعض
القاصدين لهذا الفن غرفة من غرفه.

(١) بالكلمة بعض محو في الأصل.

(٢) كلمة مأروضة بالأصل لعلها: النظر.

(٣) فضلت، ٤٢.



[٢ - ب] / الإحالة بالصواب.

الباب الأول

في ذكر الجدل والحجة

إعلم أنّ الله سبحانه ذكر لفظة الجدل وما
تصرّف منها في كتابه العزيز في تسعة وعشرين
موضعاً. ولفظة الحجة وما تصرّف منها في
سبعة وعشرين موضعاً^(١). ولفظة السلطان
أيضاً في ثلاثة وثلاثين موضعاً^(٢). الجميع
المراد به الحجة سوى موضع واحد في الحاقة
﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾^(٣) وقيل: المراد به
الحجة.

فأما الجدل فهو مذموم في كلّ موضع ذكر
الآ في ثلاثة مواضع:

أحدها في النحل ﴿أَدْعِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ
بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ﴾^(٤).

الموضع الثاني في العنكبوت ﴿وَلَا تُجَادِلُوا
أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٥).
الموضع الثالث في المجادلة ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ
قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾^(٦) وهذه المرأة

وهذا الكتاب يشتمل على ثمانية أبواب،
لكلّ باب فضل في فصل الخطاب، ولكنّه
وقف على ذوي الحلوم والألباب. ومشارع
هذه الأبواب من الكتاب المعصوم من الزلّ
والارتباب:

* - الباب الأول في ذكر الجدل في الكتاب
العزيز والممدوح منه والمذموم.

* - الباب الثاني: أول من سنّ الجدل.

* - الباب الثالث جدال الأنبياء صلوات الله
عليهم وسلامه للأمم.

* - الباب الرابع ذكر الأدلة وأنواعها على
وجود الصانع سبحانه.

* - الباب الخامس ذكر الأدلة على أنّه
واحد.

* - الباب السادس ذكر أدلة البحث.

* - الباب السابع ذكر الأدلة على رسالة
محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن العزيز.

* - الباب الثامن في السؤال والجواب
ونكت من الجدل.

فهذه ثمانية أبواب، وعلى توفيق الله سبحانه

(١) لم نجد من لفظ الحجة وما تصرّف منها في النص القرآني إلا عشرين موضعاً، انظر المعجم الفهرس لالفاظ القرآن.

(٢) بل ورد لفظ سلطان في النص القرآني ٣٧ مرة.

(٣) الحاقة: ٢٩.

(٤) النحل: ١٢٥.

(٥) العنكبوت: ٤٦.

(٦) المجادلة: ١.



هي خولة بنت ثعلبة الأنصارية كانت تحت زوجها أوس بن الصامت والقصة مشهورة^(١).

فأما قوله سبحانه ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فيحتمل أن يكون المراد بالأحسن: الأظهر من الأدلة، ويحتمل بالتعجيز عن الإتيان بمثل القرآن لأنه أحسن الأدلة نظاما وبيانا، وأكملها حسنا وإحسانا، وأرجحها من الثواب ميزانا، / وأوضحها على اختلاف مدلولاتها كشفاً وبرهانا. ويحتمل بالإصغاء إلى شبههم والرفق بهم في حلها ودخضها، ويحتمل بترك الغلظة عليهم في حال جدالهم لتكون الحجة عليهم أظهر، والجحد منهم أنكر، وهي سنة الأنبياء عليهم السلام - مع الأمم عند الدعوة والمجادلة.

من ذلك لما قالوا لمحمد - صلى الله عليه وسلم - مجنون. قال: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾^(٢) أي جنون، من غير أن يقابلهم على ذلك بقول خشن مع النخوة العربية والعزة الهاشمية. وقالوا لنوح عليه السلام: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ

جَنَّةٌ فَنَرَبُّوْا بِهِ حَتَّى حِينٍ، قَالَ: رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾^(٣). وقالوا له ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤). وقالوا للصالح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ، قَالَ: رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾^(٥). وقالوا لليهود: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، قَالَ: يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦).

فلو قابلهم الأنبياء بغلظة لنفرت طباعهم وانصرفت عقولهم عن التدبر لما قالوا، والتدبر لما جاؤوا به من البيّنات. فلم تتضح لهم المحجة، ولم تقم عليهم الحجة. وشاهد هذه الحالة قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾^(٧).

الباب الثاني

أول من سنّ الجدل الملائكة صلوات الله عليهم حيث قالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا/ وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ

(١) ذكرها السيوطي في لباب النقول ص ٧٢٢ بما نصه: اخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء. اني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة - ويخفى علي بعضه - وهي تشتكي زوجها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول: يا رسول الله، اكل شبابي ونثرت له بطني حتى اذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم اني اشكو اليك، فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها﴾ وهو أوس بن الصامت.

(٢) الأعراف: ١٨٨.

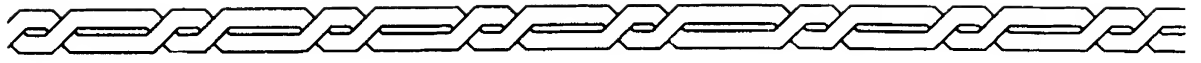
(٣) المؤمنون: ٢٥ - ٢٦.

(٤) الأعراف: ٦٠ - ٦١.

(٥) المؤمنون: ٣٨.

(٦) الأعراف: ٦٦ - ٦٧.

(٧) البقرة: ٢٠٦.



لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(١). وهذا منهم استدلال بالترجيح والأولية أي من سَبَّحَ وَقَدَّسَ لك هو أولى بالإيجاد والجعل فيها، مِمَّنْ يُفْسَدُ فيها ويسفك الدماء. وكان جواب الله (لهم بالترجيح أيضاً من جهة أخرى ولهذا لم يردَّ عليهم قولهم إذ قد علم سبحانه أن الذي ظنَّوه فيهم ووصفوه به كائن، بل عدل سبحانه إلى أمر مجمل فقال ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من ترتيب خلقي وتدبير صناعي المحوطة بالحكمة الدالَّة على القدرة. فإني خلقت الملائكة من نور لا ظلمة فيه فكان منهم الخير المَحْضُ بإرادتي، وخلقتُ الشياطين من ظلمة نار السموم وهو المارج فكان منهم الشرَّ بإرادتي، وخلقتُ آدم وذريته من نور وظلمة فكان منهم الخير والشرَّ بإرادتي، ووضعتُ فيهم عقلاً يُرشد إلى المصالح ونفساً ميَّالة إلى الهوى المُرْدِي، وأمددتُ الفريقين بجندٍ يسوقان: العقل والنفس إلى ما سبق من التقدير الناشئ عن علم التدبير، وكان حكمي في هذين الفريقين أنَّ من غلب عقله على هواه فهو من النَّاجِينَ، ومن غلب هواه على عقله فهو من الهالِكِينَ، وهذا ما اشتمل عليه ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ومِمَّا اشتمل عليه ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

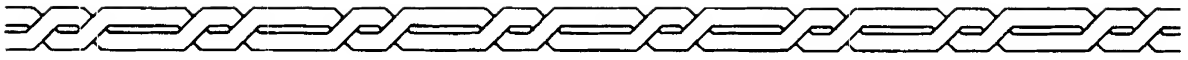
[٤-١] أن اختلاف الصنائع أدل دليل/ على قدرة الصانع. ومِمَّا اشتمل عليه ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: إني ركبت فيهم من الشهوة ما لو ركبته فيكم لفعلتم فعلهم أولم تطيقوا صبرهم على أنهم قد أحبوني محبة بذلوا فيها أبدانهم للتمزيق، ودماءهم لللراقة، وأرواحهم للذهاب، ومنهم الصابرون على أنواع المكاره، والصائمون في الهواجر، والعابدون على ضعف القوى، والنَّاهُونَ نفوسهم مع قوة الهوى، ويرون ذلك المرَّ حلواً في رضائي، وتسليماً لقضائي وقدري، يسابق كل ولي منهم بالعبادة أجله، يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة. فظهرت حكمة الله - عز وجل - في خلقهم ورجحتُ حجة الله سبحانه على الملائكة في قَدْحِهِم.

فأما إبليس فهو أول من أظهر الخلاف وركب العناد، وسار به في البلاد، والفرق بينه وبين الملائكة أن الملائكة لم يظهر منهم خلاف ولا عصيان، بل طلبوا بسؤالهم الإيضاح والبيان، وإبليس أفتى ودلَّ في مسأله، فانقطع في مجادله، وخسر في كرتة.

وبيان فساد تعليله، وإزاغته عن الصواب في تأويله، أنه قال ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٢) ومعناه أن النار جوهر لطيف شفاف له

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) الأعراف: ١٢.



قوة الإشراق، وسلطان الإحراق، والطين جسم مظلم كثيف، ليس باللطيف ولا الخفيف، والسجود خدمة تتضمن تعظيم المسجود له [٤ - ب] والأولى بها/ الأعلى منهما. هذا منتهى كلامه ومضمون قوله. وهو مردود عليه من وجوه:

منها أنه عارض النص بالقياس، وهو فساد في الاعتبار، وعدم استبصار، لأن العمل بالنص مقدم على القياس، لأن سهام القياس تصيب مرة وتخطيء أخرى، وكلام المعصوم المنزه عن الغلط والزلل لا يخطيء.

ومنها أن الماء والتراب والهواء والنار أصول الأجسام ومواد المركبات فلا يقوم جسم إلا بإجتماعها، وإذا كانت متكافئة في التأثير فاختصاص أحدهما بالأفضلية لا دليل عليه.

ومنها أن الطين اشتمل على أصليين من الأصول الأربعة وهو الماء والتراب فكيف يكون أصل واحد خير من أصليين متكافئين. وعلى تقدير تسليم التفاضل فالماء أفضل لأن سلطانه يقهر سلطان النار إذا التقيا.

ومنها - على تقدير صحة قياسه - فالترجيح للسجود من وجهين: أحدهما أن مصلحة

امتنال الأمر راجحة على الامتناع لأن امتثال الأمر آمن من العقاب المرتب على المخالفة. الوجه الثاني أن الامتناع من السجود بهذا التعليل المذكور من جهته يلزم منه تخطئة الأمر ونسبته إلى وضع الشيء في غير موضعه، [٥ - أ] وذلك في غاية الجناية/ على الإله الحكيم. وقد قال بعض المتكلمين: إن كل شبهة وقعت في الملل فأصلها من شبهة إبليس. قال المصنف: بل هي شبهة واحدة مطردة في كل مذهب فاسد وقد ذكرنا ذلك في كتاب البروق.

وأما الحجة فهي عبارة عن دليل الدعوى وقد تطلق على الشبهة أيضا لأنها مستند المخالفة. قال الله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(٣). أي الدليل القاطع الذي لا يعارضه معارض وذلك قوله تعالى ﴿وَبَلَّغْنَا آيَاتِنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾^(٤) وقد قيل في قوله تعالى إخباراً عن إبليس ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾^(٥). أي حجة وإنما غرهم بالشبهة. فالحجة: حقيقة في الدليل، مجاز في الشبهة.

(١) الشورى: ١٦.

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) الأنعام: ١٤٩.

(٤) الأنعام: ٨٣.

(٥) إبراهيم: ٢٢.

الباب الثالث

في جدال الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - للأمم

أولهم جدال نوح عليه السلام . قال : يا قوم ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَاراً، مَا لَكُمْ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً، أَلَمْ تَرَوْا / كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً، وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطَةً لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجاً﴾^(١) . وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ، فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشِراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾^(٢) .

أجابهم نوح عليه السلام بالحجة العظمى فقال: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾^(٣) . إلى هنا هي الحجة العظمى ، وهذه

الحجة العظمى هي التي أضافها الله عز وجل إلى نفسه في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾^(٤) .

وقد أشبعنا القول فيها في كتاب الحجة العظمى . قالوا: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٥) .

جدال إبراهيم وحجابه : وله ثلاث مقامات : الأول مع نفسه ، الثاني مع أبيه ، الثالث مع نمرود وقومه .

الأول ، رأى كوكبا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ إلى آخر القصة . وجه استدلاله انه رأى إنارة الكوكب وحسنه وعلو مكانه ولم ير قبله مثله فقال : هذا ربي ، بناء على أن الرب لا ينبغي أن يكون له مثل . فلما أفل أدرك نقصه وعيبه لأن الأفل تغير والتغير حدوث والكامل لا يجوز عليه الحدوث لأنه صانع الحدوث . وطرد القياس في الإثبات والنفي على باقي الكواكب بالاعتبار الأول ، ومن حيث علم أنها مكوّنة مصنوعة علم أنها لا بد لها من صانع هو أكمل منها فقال ﴿وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٦) ليُدْخِل في ذلك الكواكب التي

(١) نوح : ١٠ - ٢٠ .

(٢) هود : ٢٥ - ٢٧ .

(٣) هود : ٢٨ .

(٤) الأنعام : ٨٣ .

(٥) هود : ٣٢ .

(٦) الأنعام : ٧٩ .



اعترضته في طريق الاستدلال.

أنها فاسدة، لأن حقيقة الإحياء والإماتة التي فسرها خصمه غير الذي قصده إبراهيم، فلا يخلو حال نمروذ إما أن يكون ما فهم حقيقة الإحياء والإماتة، أو فهم الآ أنه قصد المصادمة والمباهنة، وكلاهما يوجب العدول الى دليل يفصح معارضته ويقطع حجاجه. ومتى كان الخصم بهذه الصفة جاز لخصمه الانتقال الى دليل آخر أقرب إلى الفهم وأفلح للحجة. وسيأتي نظيره في قصة موسى - عليه السلام - قال الله تعالى: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالُوا أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾، وذكر الحجة العظمى فقال ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ﴾ إلى قوله ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ (٤).

وقد شرحنا هذا في كتاب الحجة العظمى. فان قيل ما الحكمة أنه جادل الملك بالإحياء والإماتة والإتيان بالشمس من المشرق، وكل ذلك يمكن دعوى المعارضة له والكلام عليه، ولم يدعه بالحجة العظمى، وجادل قومه بالحجة العظمى، فالجواب: أن الملك كان يدعي الربوبية فلا يقال إنه لا يخلو إما أن يكون لنا إله أو لا، بخلاف حال قومه فأنهم لم يدعوا ربوبية.

جدال موسى عليه السلام. قال الله

المقام الثاني مع أبيه؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا، قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (١) فكان جواب أبيه جواب جاهل لأنه قابله على نصحه له بالرجم والهجر أشبه جواب قومه، وما كان جواب قومه إلا أن ﴿قَالُوا خَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ (٢).

[٦ - ب] المقام الثالث مع النمروذ / وقومه وهو قوله

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣) فالصادر من خصمه معارضة إلا

(١) مريم ٤١ - ٤٦.

(٢) الأنبياء: ٦٨.

(٣) البقرة: ٢٥٨.

(٤) الأنعام: ٨٠ - ٨١.

الأعلى ﴿٣﴾ فلما قال ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أردف ما ذكر بشاهدين آخرين فقال ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لأنَّ المشرق والمغرب آيتان عظيمتان لا يقدر فرعون على ادعائهما. فلما اندحضت حجته ﴿قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾. قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشْيءٍ مُبِينٍ، قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٤﴾.

آيتان عظيمتان في انقلاب أعيانهما وإنما كانت الآية في العصا لأنها أنزلت على آدم بسبب الكلب لما نبَّح عليه. لما تعاضمت دعوى فرعون قُوبِلَ بها إهانة له واستحقاراً. وكونها ظهرت في صورة ثعبان مناسب لحاله لأنَّ مسّها لَيِّنٌ وفعلها قَاتِلٌ، وفرعون بإظهار كَرَمِهِ وعدله لَيِّنٌ وفعله قاتل لنفسه وغيره. فأما يده البيضاء فالإشارة فيها جثتك بالشرع النير الأبيض الذي لا ظلمة فيه كما قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم: (جثتك بها بَيْضَاءُ نَقِيَّةٌ).

ولما كانت آيات موسى عليه السلام حسية ومعجزاته / مرئية لم يخاطبهم بالحجة العظمى [٨ - أ]

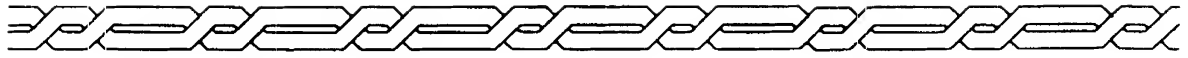
سبحانه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) إلى أن قال سبحانه ﴿قَالَ فِرْعَوْنَ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ؟ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ، قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ، قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشْيءٍ مُبِينٍ، قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (٢).

والإشارة إلى وجه الدلالة من ذلك أن فرعون لما قال: وما ربُّ العالمين؟ عليم موسى أنه سؤال عن ماهية ربِّ العالمين. وربُّ العالمين لا ماهية له، لأنه الأول فلا شيء قبله، فيكون منه، بل هو مَكُون ما تتكوّن الأشياء منه. فلم يشتغل موسى برّد سؤاله وبيان فساده وكان المقصود تعريف الربِّ - جلّ وعلا - بصنعيته فقال ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فحصر الكائنات في ثلاث كلمات، فلما قال ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ ردّاً على فرعون قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمْ

(١) الشعراء: ١٦.

(٢) الشعراء: ٢٢ - ٣٢.

(٣) النازعات: ٢٤.



لأنها عقلية. ولما هموا بقتله ألهم الله سبحانه مؤمن آل فرعون الحجة العظمى فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾^(١). وقد شرحنا ذلك في كتاب الحجة العظمى.

وأما جدال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكفار قريش واليهود فسيأتي في ذكر الأدلة الدالة على صدق رسالته.

الباب الرابع

في ذكر الأدلة على وجود الصانع سبحانه

اعلم أنها لا تخصى لأن كل موجود عن عدم، فهو دليل على وجود مُوجد كما قال سبحانه ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(٢) وذلك التسبيح إذعان لموجده وعبادة لربه كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد.

فأما أدلة الكتاب العزيز فمنها قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ

وإلى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^(٣). وقال تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا / وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَبَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾^(٤) وصرف سبحانه هذه الكلمات في كتابه العزيز وصرف هذه الأدلة منها الدلالة على وجوده وقدرته وحكمته وأنه لا مشارك له ولا معاضد ولا مغالب فقال ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أُرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾^(٥). وقال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُوحَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَتَجَاوِرَاتٌ^(٦) وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صَنْوَانٌ وَغَيْرُ صَنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٧). وقال تعالى ﴿إِنَّ فِي

(١) غافر: ٢٨.

(٢) الاسراء: ٤٤.

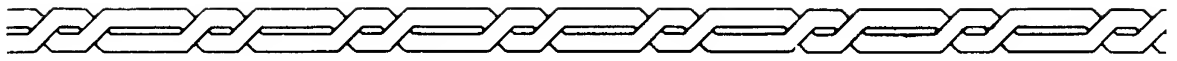
(٣) الغاشية: ١٦ - ٢١.

(٤) النبا: ٦ - ١٦.

(٥) التازعات: ٢٧ - ٣٣.

(٦) بالاصل: متجارات وهو خطأ.

(٧) الرعد: ٣ - ٤.



خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ
النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا
بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(١).
وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً
وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ
وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ
الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ^(٢)﴾. وقال تعالى: ﴿تُولِجُ
اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ
الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ
وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ^(٣)﴾. وقال تعالى
﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ
الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى
تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ^(٤) اللَّيْلَ سَكَنًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا
بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَفْقَهُونَ^(١)﴾. وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِهِمْ
بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ^(٢) مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ
أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ
أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ^(٣)﴾.
وقال تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ
مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ^(٤)﴾. وقال تعالى ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ
[٩ - ب] الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ
يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ
وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا
عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ، سُبْحَانَ الَّذِي
خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ
أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ، وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ
مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي
لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ
قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لَا
الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ
سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ، وَآيَةٌ لَهُمْ
أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا
لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا

(١) البقرة: ١٦٤.

(٢) يونس: ٥.

(٣) آل عمران: ٢٧.

(٤) بالاصل: وجاعل وهو خطأ.

(٥) الأنعام: ٩٥ - ٩٨.

(٦) بالاصل: الموت - وهو تحريف.

(٧) يونس: ٢٢.

(٨) الاسراء: ٦٧.

وَالْأَرْضَ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ ﴿٩﴾.

فصل: وقد حصلت معرفة الله سبحانه لقوم
مخصوصين من طريق آخر مخصوص وهم
الملائكة وما جرى لهم من سؤال وجواب وفي
قصة إبليس كفاية له عن التنوع فيما يقيس
والتجنيس. وحصل العلم اليقيني لآدم فيما
حدث من أمره وتقادم فاستسلم وسالم.
والأنبياء مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف
نبي الكل عرفوا الصانع معرفة اليقين. منهم
المُرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر أغنى عيان
الآيات عندهم عن الخبر.

ففي نوح ودعوته ونجاة أهل سفينته، وفي
إبراهيم وناره وحياة أطياره، ويوسف وبراءته
بشهادة غلامه/ وإجابته في قضاء حاجاته وإهلاك
عدوه من جميع جهاته، ويونس وحوته، وزكريا
وسكوته، ومريم وابنها، آيات بينات.

ويتبع هذا الجمع جموع لا تُحَدُّ لهم كثرة
كلهم أخبر عن وجود إله واحد قادر مريد عالم
حي. والأنبياء وأتباعهم هم حُجَجُ الخلق،

صَرِيحٌ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا
وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿١﴾. وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا
خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا
مَالِكُونَ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمَنَّا رَكُوبُهُمْ وَمِنَهَا
يَأْكُلُونَ، وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢﴾. وقال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ
أَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٣﴾. وقال
تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُم الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ
أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ ﴿٤﴾.
وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، أَأَنتُمْ أَنْشَأْتُم
شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ ﴿٥﴾. وقال تعالى
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ/ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ
جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّفُثَةَ
عَلَقَةً﴾ إلى قوله ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ
الْخَالِقِينَ﴾ ﴿٦﴾. وقال تعالى ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ
إِلَىٰ طَعَامِهِ، أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا
الْأَرْضَ شَقًّا﴾ إلى قوله ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ
وَلَأَنْعَامٍ لَّكُمْ﴾ ﴿٧﴾. فوجه الدلالة من هذه الآيات
جلي لمن سبقت له السعادات، قال تعالى
﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ ﴿٨﴾. وقد مدح الله
تعالى قوماً أدَّتْهُمْ الْفِكْرُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الْعَبَرِ، قال
سبحانه ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

(١) يس: ٣٣-٤٤.

(٢) يس: ٧١-٧٣.

(٣) الواقعة: ٥٨.

(٤) الواقعة: ٦٨: ٦٨-٦٩.

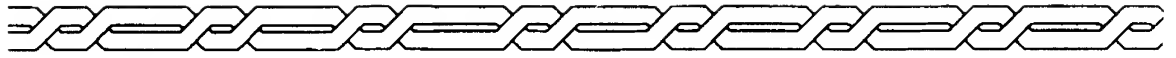
(٥) الواقعة: ٧١-٧٢.

(٦) المؤمنون: ١٢-١٤.

(٧) عبس: ٢٤-٣٢.

(٨) الأنعام: ٤٦.

(٩) آل عمران: ١٩١.



وعلمائهم وأعيان العلماء ونبلاؤهم ولو لم يكن هناك دليل على وجود الإله سوى اتفاقهم على وجوده بالصفات المذكورة كان ذلك كافياً في حصول العلم واليقين بخبرهم إذ كانوا جميعاً لا يتصور التواطؤ منهم على الكذب. والله الهادي بفضله.

الباب الخامس

ذكر الأدلة على أنه واحد سبحانه

ومن حيث ثبت أنه موجود بصفة الوجود ثبت أنه واحد لأن الصنعة مفتقرة إلى الصانع وليست مفتقرة إلى ما زاد على الصانع، فصار وجود ما زاد على الصنعة جائزاً والجائز الوجود لا يجوز أن يكون إلهاً مُبدعاً قديماً.

وأما أدلة الكتاب العزيز فكثيرة من ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١). وهذا الدليل معتمد أرباب الكلام [١ - من أهل الإسلام]. وقد نُقِلَ عن بعض علماء السلف أنه قال: نظرت في سبعين كتاباً من كتب التوحيد فوجدت مدارها على قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

دليل آخر في سورة «المؤمنون» قوله تعالى ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ، وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى

بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(٢). وفي الكلام حذف وتقديره: ولو كان معه آلهة، وأنما حذف للإيجاز، والإيجاز مستحسن في كل مكان: وههنا أكمل حسناً لثلاثاً يكرر ذكر الآلهة لأنه إبطال على تقدير: وأنما ذهب كل إله بما خلق طلب الاستعلاء بالعلو والقدرة، وذلك منشأ المخالفة والمنافسة والتغالب، والمغلوب لا يكون إلهاً.

دليل آخر: قوله في سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ الْعَرْشَ سَبِيلًا﴾^(٣) ومعناه أن الآلهة تطلب المنازعة والمخالفة في المراد فحينئذ يقع الفساد إذ يريد أحدهما حياة شخص والآخر موته أو إبعاده والآخر إشقاءه.

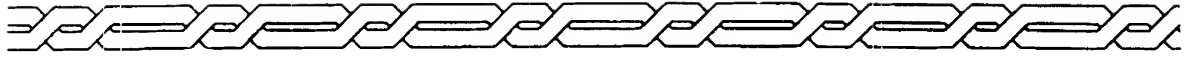
فإن قيل الشبهة على هذه الأدلة من وجهين: أحدهما يجوز أن يكون اثنان تتفق إرادتهما فلا يقع خلاف، فلا يقع فساد؛ [١١ - ب] الشبهة الثانية قالوا: لما رأينا وجود الشيء وضده من الموت والحياة والنور والظلمة والخير والشر وما يقتضي الحكمة وينافيها من النقص بعد البناء والعجز بعد القوة جاز أن يُنسب إلى مُدَبِّرَيْنِ اثنين.

والجواب عن الشبهة الأولى استحالة وجود

(١) الأنبياء ٢٢.

(٢) المؤمنون: ٩١.

(٣) الإسراء: ٤٢.



اثنين لا تنفك إرادة أحدهما عن إرادة الآخر متكافئين في العلم والقدرة والإرادة والحكمة والتدبير على وجه لا تتقدم صفة أحدهما على صفة الآخر في الأعيان والأذهان فإذا هما واحد سمّوه اثنين.

والجواب عن الشبهة الثانية أن صدور الشيء وضده أدلّ على قدرة الصانع وقد نبّه سبحانه على ذلك في عدة مواضع من الكتاب العزيز من ذلك قوله تعالى ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾^(١).

الباب السادس ذكر أدلة البعث

في الكتاب العزيز منها كثير من ذلك قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِئْتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا، أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾^(٢) ومثله ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾^(٣)، المراد ههنا أبي بن خلف وقيل العاص بن وائل^(٤)، ثم

[١٢-أ] ذكر سبحانه وتعالى شُبُهَاتِهِ فقال ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٥) فجاء الجواب من وجهين أحدهما جدلا يتضمن فساد شُبُهَاتِهِ من جهة أنه استبعد الإعادة والحياة في عظام وحش وترك نفسه وذلك أهم من إحياء الحيوان البهيم لأن إيجاد الحيوان البهيم كان لأجل الإنسان.

الوجه الثاني ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾... إلى آخر السورة^(٦) فإن إيجاد المبادئ أصعب في مطرد العرف وحكم العقل من رد شيء كان إلى ما كان على ما لا يخفى. وقوله سبحانه ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾^(٧) معناه إيجاد شيء مما ينافيه وينافره فلا بد من قوة من خارج تغلب على المتنافرين المتنافيين بفعل ذلك. ثم قال سبحانه ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(٨) معناه من قدر على خلق السموات

(١) الرعد: ٤.

(٢) مريم: ٦٦ - ٦٧.

(٣) يس: ٧٧.

(٤) أورد السيوطي سبب نزول هذه الآية بما نصه: وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففقه فقال: يا محمد، أبيع هذا بعد ما أرم؟ قال: نعم، يبعث الله هذا ثم يبعثك ثم يدخلك نار جهنم. فنزلت الآيات (أو لم ير الإنسان...) إلى آخر السورة. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي نحوه، وسموا الإنسان أبي بن خلف.

السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول (ط في ذيل كتاب تفسير الجلالين) ٥٨٨.

(٥) يس: ٧٨.

(٦) يس: ٧٩ - ٨٣.

(٧) يس: ٨٠.

(٨) يس: ٨١.

ذلك مثلاً . ولما استحال في حقه العجز والضعف عن إيجاد شيء لا من شيء قال ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وذلك مطرد في سائر صفاته سبحانه من العلم والقدرة والحياة والرحمة والرّضى والغضب وكلّ صفة وصف بها الإنسان من ذلك ، مثاله قولنا عالم والواحد منا عالم ، ولكن يطلق على المخلوق باعتبار معلوم ما ، وإن علمه من جهة جهله من جهات . ثم علمه إما بطريق الخير أو النظر أو الاضطراد ، والله سبحانه عالم بما كان وما يكون على وجه لا يخفى عليه شيء ولا يداخله الشك ولا الذهول ولا النسيان ولا يتقدم بزمان ولا مكان ولا نظير ولا حيز ولا اضطراد قال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ (٦) فهذا معنى قوله ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ .

ومن أدلة البعث قوله تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧) .

ومن أدلة البعث قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٨) .

والأرض قدر على خلق هذا النوع اللطيف والشكل الضعيف وإذا قدر على إيجاد قدر على ردّه بعد نفاذه ، ثم أخبر سبحانه عن نفسه بماذا يخلق الأشياء ويكون فقال ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١) وفي موضع آخر ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢) وعند ذلك سبّح نفسه فقال [ب] (فَسُبْحَانَ / الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (٣) فعمّ الموجود والمعدوم والإبداء والإعادة وجعل الرجوع خاتمة الكلام لأنّ الإنكار له والأدلة أقيمت عليه .

ومن أدلة البعث قوله سبحانه ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (٤) ومن أدلة البعث قوله ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥) وإنما قال سبحانه ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ضرب مثل لأن المقدورات عندنا نحن متفاوتة في العسر واليسر باختلاف القدرة التي تزيد وتنقص في حقنا . ولما كان إيجاد شيء لا من شيء مستحيل منا وإيجاد شيء من شيء ممكن ؛ فاستعار له كلمة أفعل ضرب

(١) يس : ٨٢ .

(٢) النحل : ٤٠ .

(٣) يس : ٨٣ .

(٤) الاسراء : ٥١ .

(٥) الروم : ٢٧ .

(٦) الملك : ١٤ .

(٧) العنكبوت : ٢٠ .

(٨) فصلت : ٣٩ .



ومن أدلة البعث في سورة الواقعة قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . . . أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . . . أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . . . أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . . .﴾ (١). ووجه دلالة النار على البعث أن النار تَكْمُنُ في الشجر والحجر ثم تظهر بالقَدْح وتُسَبَّ بالنفخ، فالحجر والشجر كالقبر والقَدْح والنفخ كالنفخة في الصور. وإنما ذكر الله سبحانه في هذه السورة هذه الأدلة الأربعة متوالية لأنه بدأ السورة بالواقعة وهي القيامة وقال ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ . خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ (٢). وإن الجاحدين كما قال ﴿. . . كَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٣) فكان الجواب ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (٤).

ومن أدلة البعث في سورة الأحقاف (أولم يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٥).

ومن أدلة البعث ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً . . .﴾ (٦). قال المصنّف: والأدلة على البعث جوازاً ووجوباً: أما الجواز فالنظائر الحسية وأما الوجوب فما وعد الله تعالى به من البعث والإعادة وإكرام الطائعين بجنته وإهانة المجرمين بعقوبته، وما اقتنع للخلق بتكرير وعده الصادق حتى حَلَفَ على ذلك في عدة مواضع من ذلك ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ . . .﴾ (٧) ومن ذلك ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ (٨) ومن ذلك ﴿وَيَسْتَنْبِئُكَ أَهَقُّ هُوَ؟ قُلْ إِيَّايَ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ . . .﴾ (٩).

فصل: ولم يكن لمنكر شبهة إلا مجرد تعجب واستبعاد. قال الله تعالى ﴿وَلَنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . .﴾ (١٠). معناه إن كان لك عجب من شيء فمن إنكارهم البعث، فاعجب لأن العجب ممّا ندر/وجوده وخفي سببه وليس هذا ممّا ندر وهم يشاهدون إحياء الأرض بعد موتها

(١) الواقعة: ٥٨ - ٧١.

(٢) الواقعة: ٢ - ٣.

(٣) الواقعة: ٤٧ - ٤٨.

(٤) الواقعة: ٤٩ - ٥٠.

(٥) الأحقاف: ٣٣.

(٦) الحج: ٦٣.

(٧) التغابن: ٧.

(٨) الذاريات: ٢٣.

(٩) يونس: ٥٣.

(١٠) الرعد: ٥.

اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٢﴾

الثالث: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣).

الموضع الرابع: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤).

الموضع الخامس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٥).

فصل: قد توجه القرآن العظيم على مائة دليل وأربعة عشر دليلاً، عدد سوره. فالتحدي بالطوال منه كالتحدي بالقصار، فعلى هذا السور القصار إذا أخذت عدلها كلمات على ترتيبها كانت معجزة، ويقع بهذا التحدي، أو سورة سورة من القصار وعدلها من آي القرآن من أي سورة كان، كانت معجزة. فاذا بلغ أدلة التعجيز منه مبلغاً يزيد على الألف دليل. وهذا من أسرار الكتاب العزيز وعجائب التنزيل.

واكتساء الأشجار بعد غروبها وعود النهار بعد زواله والليل بعد ذهابه وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، ولا مما خفي سببه فإن الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمخترع له والقادر عليه وحكمته إظهار ما استتر عن خلقه من تدبيره. وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى.

وقد قال بعض الحكماء: ثبت أن الله - عز وجل - حكيم والحكيم لا ينقض ما بني إلا لحكمة أتم من حكمة النقص، ولا يجوز أن تكون أنقص ولا مماثلة على ما لا يخفي.

الباب السابع

ذكر أدلة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - من الكتاب العزيز

والكتاب العزيز كله دليل على صدق رسالته بل كل سورة منه دليل عليه لمكان العجز عن الاتيان بمثلها. وقد ورد التحدي بذلك في الكتاب العزيز في خمسة مواضع:

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٥).

والموضع الثاني: قوله عز وجل ﴿قُلْ لَنْ يُنْفِخَنَّ

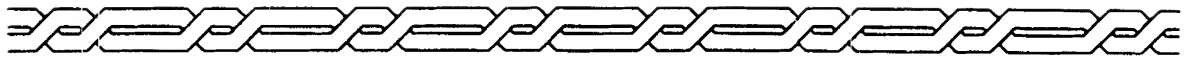
(١) البقرة: ٢٣.

(٢) الإسراء: ٨٨.

(٣) هود: ١٣.

(٤) يونس: ٣٨.

(٥) الطور: ٣٣ - ٣٤.



دليل آخر قوله ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾^(١)
أخبر أن المنكرين نبوته لم يقدرُوا على
معارضته وكذلك جرى دليل آخر قوله تعالى
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢).
وهذا خبر لم يسمع إلا من الرسول وكان الأمر
كما أخبر.

دليل آخر أخبر أنه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٣) فكان الأمر كما أخبر
بحمد الله. ومنه دليل آخر ﴿أَلَمْ، غُلِبَتِ الرُّومُ،
فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ
[١٥ - أ] فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾^(٤). / وقصة مبايعة أبي بكر
الصديق رضي الله عنه لأبي بن خلف مشهورة.

دليل آخر ﴿... لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا
تَخَافُونَ﴾^(٥). فكان كذلك.

دليل آخر المباهلة قوله تعالى ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ
فِيهِ - مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ... الآية﴾^(٦)
وهذا دليل يدل بشياعه وبخصومه على نصارى
نجران.

دليل آخر يخص اليهود وهو قوله تعالى ﴿قُلْ
إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ
دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ
يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ﴾^(٧). وهذا دليل واضح وحجة قاطعة
على اليهود فلو لم يُعلمُوا أنهم إن تمنَّوْهُ ماتوا
ولاً كانوا تمنَّوْهُ فيحاجُّوا به رسول الله صلى الله
عليه وسلم. ويبطلوا نبوته وكان ذلك أهم
الأشياء عندهم.

دليل آخر ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ
أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٨) فلو لم يعلموا أنه
رسول الله وأن خبره حق وصدق لبادروا إلى ما
يُبطل دعواه ويكذب خبره.

[١٥ - ب] دليل آخر خاص باليهود والنصارى والعرب :
قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ
الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ...﴾^(٩). وقد علموا أنه لا يعرف
الكتابة ولا النظر في الكتب ولم يكن من شأنه.

- (١) البقرة (٢٤).
- (٢) الحجر (٩).
- (٣) فصلت ٤٢.
- (٤) الروم: ١ - ٤.
- (٥) الفتح: ٢٧.
- (٦) آل عمران: ٦١.
- (٧) البقرة: ٩٤ - ٩٥.
- (٨) الجمعة: ٦ - ٧.
- (٩) الأعراف: ١٥٧.

دليل آخر: قوله تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ (١) مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ . . .﴾ (٢) الى آخر الآية، فالدلالة من ذلك من وجهين: أحدهما أن هذه الصفات لا تكون إلا في الصادقين إذ كانت أعدل الصفات وأكمل السمات. الثاني ذكرهم في التوراة والإنجيل كما سبق.

دليل آخر مختص باليهود: قوله تعالى ﴿... وَالَّذِينَ آمَنَّا هُمْ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٣). فلولا أنه يعلم أنهم يعلمون ذلك لما استجاز أن يخبرهم بأمر يدعي معرفتهم به وهم لا يعرفونه.

دليل آخر: قوله تعالى ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَاللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤).

قال ابن عبد البر: كان بين الأوس والخزرج من العداوة ما لم يكن بين أحد من بني آدم [١٦ - أ] فألف الله قلوبهم لأجل نصرة نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - فصاروا يداً واحدة وقلبا واحدا.

دليل آخر قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٥) وهذا خبر عن الغيب وكان كما أخبر.

دليل آخر: قوله تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا . . .) (٦) ومعلوم أن هذه سيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في خوفهم أولا وأمنهم ثانيا وتمكينهم واستخلافهم في الأرض وهذا ظاهر الدلالة.

دليل آخر: قوله تعالى ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٧) فنظرنا فيما دعا

(١) بالأصل: والذين آمنوا معه، وهو تحريف.

(٢) الفتح، ٢٩.

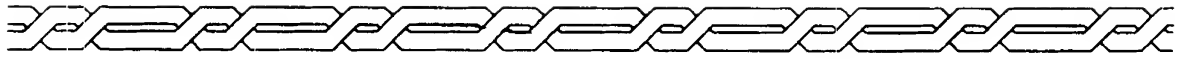
(٣) الأنعام، ١١٤.

(٤) الأنفال، ٦٢ - ٦٣.

(٥) التوبة: ٣٣.

(٦) النور: ٥٥.

(٧) الشورى: ٥٢ - ٥٣.



إليه فكانت مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم
صراط العقلاء ومختار النبلاء وهي الأخلاق
المأمور بها في قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا
فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا
كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ
رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
صَغِيرًا، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ
[١٦ - ب] إِنْ تَكُونُوا/صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا،
وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ
السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا، إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا
إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا،
وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ
تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا، وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ
مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ
مَلُومًا مَحْسُورًا، إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا، وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ
قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاءً كَبِيرًا، وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْنَةَ إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ
اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ
سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا،
وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ
يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ

مَسْئُولًا، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا
بِالْقِسَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلًا، وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ
وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا،
وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ
الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا، كُلُّ ذَلِكَ كَانَ
سِيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ
رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا/مَذْهُورًا ﴿١٧﴾.

وكذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ﴾ (٢) ومثل هذه السير العادلة والمكارم
المستحسنة لا تجري على لسان مُمخَرَقٍ.

دليل آخر على اليهود: قوله تعالى ﴿كُلُّ
الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ
إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ،
قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَمَنْ
افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣).

روي أن إسرائيل أخذه وجع العرق الذي
يقال له النسا فنذر لئن شفاه الله تعالى منه
ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان

(١) الإسراء: ٢٣ - ٣٩.

(٢) النحل: ٩٠.

(٣) آل عمران: ٩٣ - ٩٤.

أحب ذلك إليه لحوم الإبل وألبانها فشفني فوقى
بندره. وادّعت اليهود أن ذلك كان حراما على
نوح حتى انتهى الأمر اليهم فبين الله تعالى
بطلان دعواهم وأمر أن يُحَاجَّهُم بالتوراة فلم
يجسّروا على إخراجها. وفي ذلك الدلالة
الظاهرة على صدق محمد صلى الله عليه
وسلم.

دليل آخر: قوله تعالى ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي
السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾^(١) وهي... (٢) التي دعا
النبي صلى الله عليه وسلم بها على أهل مكة.
والدخان: الجذب سمي دخانا لأن الغبار يزيد
في الجذب فيكون كالدخان.

دليل آخر: قوله تعالى ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنْ
الْأَعْرَابِ سِتْرُكُمْ إِلَى يَوْمِ أُولَىٰ أَبْسِ شَدِيدِ
تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾^(٣) - وأصحاب البأس
الشديد مُسَلِّمَةٌ وأصحابه يوم اليمامة. وقيل
فارس والروم - وأيما كان فقد أخبر عن الغيب
فيه فكان الأمر كذلك.

دليل آخر: قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ

فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ
مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾^(٤) وفي هذا
دليل ظاهر على صدق الرسول - صلى الله عليه
وسلم - لأنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله
فأنهم أُخْرِجُوا فلم يخرجوا معهم ، وقوتلوا فلم
ينصروهم.

دليل آخر: قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي
الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ
لَئِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا
بِهِمْ...﴾^(٥) قيل هم من بعض الصحابة، وقيل
هم الأعاجم، وعلى كلا الأمرين فقد وقع
الخبر موافقا للمخبر به.

دليل آخر: قوله تعالى ﴿... وَاللَّهُ يُعْصِمُكَ
مِنَ النَّاسِ...﴾^(٦) وقال ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ...﴾^(٧) وكان يُحْرَسُ فقال
(أَذْهَبُوا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ عَصَمَنِي)^(٨) فأخبر
بِعِصْمَتِهِ فما قدر أحد على قتله مع كثرة أعدائه
[١٨ - أ] والقاعدين / له بذلك كما عُرف.

دليل آخر قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ

(١) الدخان: ١٠.

(٢) كلمة غير واضحة بالأصل.

(٣) الفتح: ١٦.

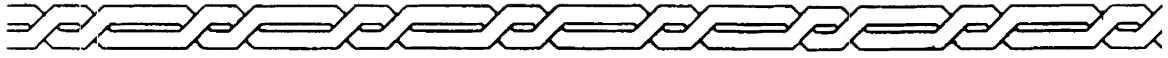
(٤) الحشر: ١١ - ١٢.

(٥) الجمعة: ٢ - ٣.

(٦) المائدة: ٦٧.

(٧) الرعد: ١١.

(٨) انجم المفهرس لالفاظ الحديث ٤: ٢٤٩ (مع اختلاف في نص الحديث).



أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿١﴾ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٢﴾ وَلَا خُلْفَ فِي خَبْرِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقد أَخْبَرَ كما تقدّم من القصص . واليهود يعرفون صحّة ما أخبر من كتابهم ، هذا ولم يكن صاحب كتابة ولا مشتغلا بالكتب وأخبر عن أمور منها ما كان ومنها ما سيكون . ومن أنعم النظر في الكتاب العزيز استنبط من أدلّة صدق محمّد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أكثر ممّا ذكرناه .

مشهوداً لها بالتميز .

وإذا تقرّرت هذه الأدلّة التي ذكرناها فكلّ دليل دلّ على رسالة محمّد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وعلى رسالة من سبقه / من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فهو دليل على وجود الصانع سبحانه .

الباب الثامن

في ذكر الأسئلة والأجوبة الجدلية من الكتاب العزيز

فأمّا أدلّة رسالته من غير الكتاب العزيز فهي أكثر من أن تُحصى وقد أُلّف دلائل النبوة جماعة من العلماء منهم أبو نعيم الحافظ الأصبهاني^(٣) ، ومنهم أبو بكر بن فورك^(٤) ، ومنهم الحافظ أبو بكر البيهقي^(٥) .

سؤال : المنع ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(٦) معناه لا نُسَلِّمُ أَنَا مفسدون لأن الإصلاح ضدّ الإفساد فإذا ادّعوا الإصلاح فقد أنكروا الإفساد ثمّ مُنعوا هذه الدعوى بقوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾^(٧) وفي هذا دليل على جواز المنع من طريق المعنى ، وفيه الردّ على من يقول هذا بغير توجيه لاحتمال مراعاة صيغة لفظ المجادل . وهذا يطرّد في كلّ موضع هذا سبيله .

فصل : ومن فهم مذهب الفصاحة والبلاغة وأرشده الله تعالى ووفقه ، أمكنه أن يختار من الأخبار النبويّة الصّحاح ألف حديث فما زاد تبلغ مرتبة التعجيز عن الإتيان بمثلها فتكون ألف دليل على النبوة مستمرة التعجيز ،

(١) محمد : ٢٤ .

(٢) النساء : ٨٢ .

(٣) ذكر في كشف الظنون : ٧٦٠ .

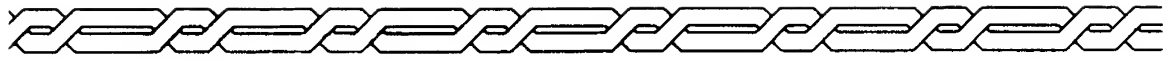
(٤) لم تنسب له أهم مصادر ترجمته كتاباً في دلائل النبوة ، انظر السبكي : طبقات الشافعية ٣ : ٥٢ - ٥٦ ابن خلكان : الوفيات ٣ : ٤٠٢ . ابن تغري بردي :

النجوم الزاهرة ٤ : ٢٤٠ .

(٥) ذكر في كشف الظنون ١ : ٧٦٠ . وقال حاجي خليفة ان سراج الدين بن الملقن اختصر الكتاب كما نسب كتباً أخرى الفت في دلائل النبوة لعدد من العلماء ، نفس المصدر وكذلك البغدادي في إيضاح المكنون ١ : ٤٧٧ . وابن خير من فهرسه ص ٢٨٦ .

(٦) البقرة : ١١ .

(٧) البقرة : ١٢ .



ومثله قول الله تعالى عن الكفار حيث قالوا لرسول عيسى بن مريم ﴿إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ﴾^(١) قالوا لهم ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾^(٢) أي شؤمكم معكم لا منّا. ودليله أنكم جعلتم التذكير بالله وعبادته علة الشؤم أي إن ذكركم بل أنتم قوم مسرفون.

سؤال: النقض في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أُنْ لَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣). معناه العلة التي توجب عندكم الإيمان بالرسول قد وُجِدَتْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ / فدلّ على أن التعليل بما ذكرتم غير صحيح، وهذا النقض وارد على معنى كلامهم فدلّ على جواز إيراد ما يهدم كلام الخصم على أي وجه كان.

ومن صور النقض قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾. النقض في قوله ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٤).

ومن صور النقض أيضاً في قوله تعالى ﴿مَا

كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٥) النقض بإبراهيم - عليه السلام - لأنه استغفر لأبيه وهو مشرك في قوله تعالى ﴿... سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾^(٦) فكان الجواب ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَآوَاهُ حَلِيمٌ﴾^(٧).

ومن صور النقض في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى، أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾^(٨).

سؤال: القول بالموجب في قوله تعالى ﴿... قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾^(٩). القول بالموجب ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ...﴾ تقديره / نريد أن نصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ

(١) تيس: ١٨.

(٢) تيس: ١٩.

(٣) آل عمران: ١٨٣.

(٤) البقرة: ١٧٠.

(٥) التوبة: ١١٣.

(٦) مريم: ٤٧.

(٧) التوبة: ١١٤.

(٨) القصص: ٤٨.

(٩) إبراهيم: ١٠.

عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ
بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١﴾.

ومن القول بالموجب في قوله تعالى ﴿...
الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ القول
بالموجب ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢﴾.

سؤال: المعارضة في قوله تعالى ﴿فَاتُوا
بِسُورَةِ مِثْلِهِ﴾ ﴿٣﴾ ﴿فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ
مُفْتَرَاتٍ﴾ ﴿٤﴾، و﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ ﴿٥﴾ وذلك
أنه جعله دليلاً على نبوته والدليل متى عورض
بمثله بطل عمله فيسقط الاحتجاج به.

فصل: الحكم تارة يعلل بعلة واحدة منفردة
كقوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ...﴾ ﴿٦﴾
وتارة بعلتين كقوله تعالى (وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ
زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا
تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا
مُبِينًا؟ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ
إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) ﴿٧﴾ فان

قيل بل هي علة واحدة مركبة من وصفين،
فالجواب أن الإفضاء علة في استحقاق المهر
في الصحيح من النكاح والفساد. لقول النبي -
صلى الله عليه وسلم - (فلها المهر بما استحلَّ
من فرجها) ^(٨) والميثاق الغليظ هو عقدة النكاح
وهي كلمة الله - عز وجل - وهو قوله ﴿بما
استحللتم من كلمة الله﴾ فهو تثبيت بمجرد
[٢٠ - ٢١] دون الإفضاء وجميع المهر بالموت / ونصفه
بالطلاق.

فصل: وقد يعلل الحكم بعلة، كل علة
تستقل بالحكم كقوله تعالى ﴿وما منعهم أن
تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله
ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا
وهم كارهون﴾ ﴿٩﴾.

فصل: تعليق الحكم على علة يقتضي
النقيض كقوله تعالى ﴿... وتأتون في ناديكم
المُنكَرَ فما كان جواب قومهم إلا أن قالوا آتينا
بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ ﴿١٠﴾ وكقوله
تعالى ﴿... أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس
يتطهرون﴾ ﴿١١﴾ وكقوله تعالى ﴿وإذ قالوا اللهم إن

(١) إبراهيم: ١١.

(٢) التوبة: ٦١.

(٣) يونس: ٣٨.

(٤) هود: ١٣.

(٥) الطور: ٣٤.

(٦) البقرة: ١٧٩.

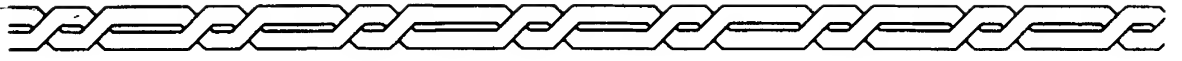
(٧) النساء: ٢٠ - ٢١.

(٨) المعجم المفهرس لالفاظ الحديث، ٦: ٢٨٠.

(٩) التوبة: ٥٤.

(١٠) العنكبوت: ٢٩.

(١١) الأعراف: ٨٢.



كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا
مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١﴾ ومثله
﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢﴾.

فصل: أجوبة الأسئلة على التفصيل كقوله
تعالى ﴿أَمْ السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ ﴿٣﴾. ﴿وَأَمَّا
الْغُلَامُ﴾ ﴿٤﴾. ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ ﴿٥﴾.

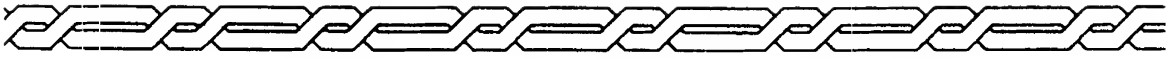
فصل: وقد تذكر صورة القياس وليس
بقياس دلالة كقوله تعالى ﴿فَوَرَبَّ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ ﴿٦﴾
فالحكم المقيس عليه أمر وجودي وهو النطق
والذي وعدهم به هو الحياة بعد الموت والبعث
بعد الدفن وهو أمر معدوم وليس بينه وبين
النطق مناسبة، ومجرد وجود حقيقة شيء لا
يدلّ على وجود حقيقة أخرى، فعند ذلك يُعلم
[بـ] أنه ما أراد إلا/تحقيق الوعد بإيجاد على وجه لا
يشكّ فيه، كوجود النطق كقول النبي صلى الله
عليه وسلم (إِنَّكُمْ لَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا
القمر لا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ) ﴿٧﴾. ومعلوم أنه ما
أراد أن رؤية القمر مقتضية لرؤية الله تعالى بل
أراد أنه كائن كوجود هذا القمر ورؤيته. ولوقيل

فإن فيه شَبَهَةً اقتضت القياس على النطق صحّ
من جهة أن الكلام يغور ويعود فهو كالमित له
غنية بالدفن والبلى ثم حضور بالبعث، فعلى
هذا قياس الشُّبه صحيح.

فصل: ومثال قياس الشُّبه قوله تعالى ﴿يَا
بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ
مِنَ الْجَنَّةِ﴾ ﴿٨﴾ وفيه دلالة على جواز إقامة اللّازم
للحكم أو السبب مقام نفس الحكم لأنّ فتنته
سبب الخروج من الجنة وهي سبب المنع من
دخولها. وذلك كلّه توسعة على المستدلّ.

فصل: في الترجيح، وهو دليل معتبر في
الشرع قد تكرر وجوده في الكتاب العزيز في
مواضع من ذلك قوله - عز وجل - ﴿وَلَا تَهْنُؤُوا فِي
ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ
كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾. ﴿٩﴾
ومعناه التحريض على القتال والتسلية لما
أصاب من مكروه بالتساوي في الألم، والمزّة
لكم عليهم بما تَرْجُونَ من ثواب الله تعالى،
فأنتم أولى بطلبهم وأحرى بالصبر على
[٢١-١] المكروه / من جهتهم.

- (١) الانفال: ٣٢.
- (٢) الشعراء: ١٨٧.
- (٣) الكهف: ٧٩.
- (٤)
- (٥) الكهف: ٨٢.
- (٦) الذاريات: ٢٣.
- (٧) المعجم المفهرس لالفاظ الحديث ٥: ٤٤٦.
- (٨) الأعراف: ٢٧.
- (٩) النساء: ١٠٤.



ومن الترجيح قوله تعالى ﴿... أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(١).

ومن الترجيح أيضا قوله تعالى ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾، الله خير أم ما يُشركون^(٢). في خمس مرات آمن.

ومن الترجيح قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

ومن الترجيح قوله تعالى ﴿يَا صَاحِبِي السُّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٤) وذلك لما تقرر أن الإثنين لا بد من وجود الفساد منهما لوقوع الاختلاف بينهما.

ومن الترجيح المذكور في الحجة العظمى ﴿... فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ...﴾^(٥).

فصل: في المفهوم، وهو ينقسم قسمين: مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة.

فالموافقة متفق عليه لقوله تعالى ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ﴾^(٦) فمفهومه تحريم الضرب والسب

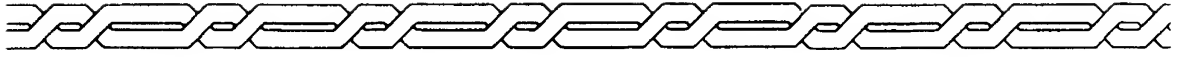
لأن التأنيف دون ذلك.

وكذلك قوله تعالى ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِيَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾^(٧) ولا يخفى أن من يؤدي القنطار يؤدي ما دونه ومن يخون في دينار يخون فيما فوقه. ويسمى ذلك فخوى الخطاب.

[٢١-ب] ومفهوم المخالفة / كقوله تعالى ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ فمفهومه إن لم تكن عليه قائما لم يؤده إليك. ومن الناس من يقول ليس هو الحجة لقوله تعالى ﴿فَمَنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٨). ومعلوم أن من افترى على الله الكذب فهو من الظالمين قبل الرسالة وبعدها وقبل نزول الكتاب وبعده.

فصل: وقد سَمَى الله سبحانه الشُّبُه التي أوردها الكفار أمثالا فقال تعالى ﴿وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا، أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا. وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ فكان الجواب

- (١) يونس: ٣٥.
(٢) النمل: ٥٩.
(٣) التوبة: ١٠٩.
(٤) يوسف: ٣٩.
(٥) الانعام: ٢١.
(٦) الاسراء: ٢٣.
(٧) آل عمران: ٧٥.
(٨) آل عمران: ٩٤.



﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾^(١) وهذا جواب جدلٍ يتضمن فساد ما تمسكوا به من الشبهة المذكورة لأنهم قالوا: إنه مسحور والمسحور مبطل الفكر ذاهب الرأي فكيف يكون معه ملكٌ أو يلقي إليه كنزٌ ثم جاء الجواب الآخر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٢) فأما ما اقترحوه من الآيات في هذا الموضع وفي غيره فالجواب عنه مذكور في عدة مواضع منها قوله تعالى ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾^(٣) وقال في موضع آخر ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِّي الْأُمُورُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾^(٤) قوله تعالى ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِئِنْ كَشَفْتَ عَنَّْا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾^(٥). والفرق بين الآيات الدالة على صدق الرسل - عليهم السلام - المقترحات من الأمم وبين

الآيات التي يبتكرها الأنبياء أن المقترحات لم تُبق لهم عذراً في ترك الإيمان بعد الإتيان بها، إذ هي بمنزلة الشاهد الذي أجاز الخصم شهادته عليه فاذا ردَّ وجحد فقد عاند وصدَّ، فاستحقَّ تعجيل الإنزال به بخلاف سائر الآيات فإنها وإن كانت أدلة إلا أن للنظر فيها فُسحة النظر ومهلة التأمل، فلهذا لم يعجل عقابه، وهذا المعنى دلَّ عليه قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا^(٦) لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى﴾^(٧).

فصل: في ذم التقليد والمقلدين وقد عابهم الله عز وجل في كتابه العزيز في عدة مواضع منها قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٨) ومن ذلك في المائدة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٩). ومن ذلك في حم الزخرف ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾^(١٠) ثم ذكر

[٢٢ - ب]

(١) الفرقان ٧ - ٩.

(٢) الفرقان: ٢٠.

(٣) الاسراء: ٥٩.

(٤) الأنعام: ٨.

(٥) الأعراف: ١٣٤ - ١٣٦.

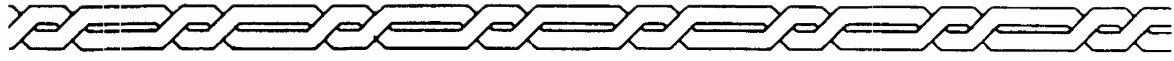
(٦) كلمة سقطت من الأصل وهو تحريف.

(٧) طه: ١٣٤.

(٨) البقرة: ١٧٠.

(٩) المائدة: ١٠٤.

(١٠) الزخرف: ٢٢.



سبحانه أَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ تَمَسُّكَ بِهَا جَمِيعُ الْأُمَمِ،
قَالَ سَبِّحَانَهُ ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ
مَنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفُّوْهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ
وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾^(١) فكان الجواب عن
شُبْهِهِمْ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿أَوَلَوْ كَانَ
آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، الوجه
الثاني ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ
آبَاءَكُمْ﴾^(٢).

وهنا نكتتان إحداهما قوله ﴿بَاهْدَى﴾ ولا
هداية لأبائهم وإنما ذكر ذلك توطئة لاستماع
حجته وتلطفاً في الدعاية إلى هدايته. النكتة
الثانية أعرضوا عن الجواب المُلْزِمِ إلى استماع
ما هو أهدى إلى قولهم ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ﴾^(٣).

فصل: في جواز التجوُّز. وفي الكتاب
العزیز من ذلك كثير. من ذلك قوله تعالى ﴿إِنْ
الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ
بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا
النَّارَ﴾^(٤) وقد عَلِمَ أنهم في الحالة الحاضرة لا
يأكلون النار، والشراء والصبر على النار^(٥).

فصل: يجوز عطف الواجب / على غير
الواجب كقوله تعالى ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ
وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾^(٦) وقوله ﴿كُلُوا مِنْ
طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْبُدُونَ﴾^(٧).

فصل: والإنكار بعد الاعتراف لَا يُسْمَعُ:
دليله قوله تعالى ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ
تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّْا بَلْ لَمْ نَكُنْ
نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ
الْكَافِرِينَ﴾^(٨) فعاقبتهم على ضلالهم الاول
بضلالٍ هو الإنكار بعد الاعتراف.

فصل: ومن لطائف الأجوبة الجدلية لما
قال فرعون لموسى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ
فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾^(٩) كَانَ جواب موسى عليه
السلام ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي
إِسْرَائِيلَ﴾^(١٠) فالذي أَعْتَدَهُ فرعون نِعْمَةً جَعَلَهَا
مُوسَى نِقْمَةً وهو جواب على معنى الكلام لا
على لفظه.

فصل: ومن أنواع التجوُّز قوله تعالى
﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾^(١١) والأنعام

(١) الزخرف: ٢٣.

(٢) الزخرف: ٢٤.

(٣) الزخرف: ٢٤.

(٤) البقرة: ١٧٤.

(٥) كذا وردت الجملة بالأصل.

(٦) الأنعام: ١٤١.

(٧) البقرة: ١٧٣.

(٨) غافر: ٧٣ - ٧٤.

(٩) الشعراء: ١٨.

(١٠) الشعراء: ٢٢.

(١١) المؤمنون: ٢٢.

ثلاثة أنواع إبل وبقر وغنم والمركوب منها الإبل خاصة .

فصل: في المباكته بالتشنيع ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾، قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(١). فإذا وقع التشنيع على مذهب بسبب حكم خالف فيه الفقهاء أو قول فيه نفرة مثل المخلوقة من ماء الزنا وجواز الحصحصة على مذهب الإمام أحمد. أو ما كان للخصم أن يشنع على مذهبه بما هو من هذا القبيل وقد صح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لليهود (يا إخوان الفردة)^(٢).

فصل: ومما يجري مجرى المقابلة في الأذى والجناس في الجزاء ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ بِمَا قَالُوا﴾^(٣) واللعن هو الطرد والبعد. ولما كانت يد الله مبسطة بالقدرة على الإيجاد والاعدام والاشقاء والإسعاد، كان القول بغلول يده سبحانه أبعد المحالات في نظر العقل فاستحقوا الإبعاد.

فصل: التخصيص بالذكر لا يدل على الاختصاص في الحكم كقوله سبحانه ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ﴾^(٤) وقال سبحانه بعدها ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾^(٥).

فصل: يتضمن ثلاث شبه والجواب عنها.
الأولى أنه تارة تحدى بجملة القرآن، وتارة بعشر سور. وتارة بسورة. والجواب أنه ذكر الأحاد والعقود ونفاها ليُعْلَمَ العجز عن كله وبعضه. فإن قيل القديم لا يوصف بكل ولا بعض قيل: كقولنا عالم مرید قادر وهذه بعض صفات القديم ولا يريد بعضية التحدي وكما تقول: القرآن مائة وأربع عشرة سورة، والسورة [٢٤ - ١] / كذا كذا آية.

الشبهة الثانية: ما الحكمة أن هذا الكتاب العزيز لم ينزل جملة واحدة وسائر الكتب نزلت جملة جملة. قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا، وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٦).
الجواب الثاني قال أهل المعاني: القوم كانوا قبلنا عمالاً فكتبنا كتبهم وسلمت

(١) المائدة: ٥٩ - ٦٠.

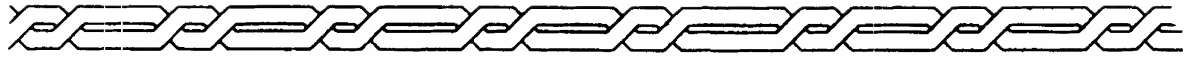
(٢) المعجم المفهرس لالفاظ الحديث: ٥: ٣٦٢.

(٣) المائدة: ٦٤.

(٤) المائدة: ١٧.

(٥) المائدة: ٧٣.

(٦) الفرقان: ٣٢ - ٣٣.



جملة وهذه الأمة أحبابٌ ورسائلُ الأحباب لا
تَنقَطِعُ .

والشبهة الثالثة شبهة القَدَرِية قالوا: كيف
الجمع بين إرادة خلق الفعل والعقاب عليه؟
والجواب: ثَبَّتْ بالاجتماع أنه حكيم عادل
والحكيم العادل غير متهم، كيف وقد ذكر
الظلم في الكتاب العزيز في مائتي موضع
وثمانين موضعاً وذمة الظالمين، ونفى الظلم
عن نفسه في ثمانية وعشرين موضعاً منها،
ويستحيل أن يُحَرِّم شيئاً على نفسه ويقبِّحه من
غيره ثم يفعلهُ، وهو أعَدَلَ العادلين وأَجَلَ
الْمُنْعِمِينَ وَالْخَوْضُ فِي هَذَا مِنْهُيٌّ عَنْهُ لِأَنَّهُ بَحْرٌ
مُغْرَقٌ يَكْشِفُهُ مِيعَادُ يَوْمِ تُبْلَى السَّرَائِرُ .

فصل: والدليل على أَنَّ توبة الزنديق لا
تقبل قوله عز وجل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ
إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الضَّالُّونَ ﴾^(١) وَالْمَعْنَى فِيهِ أَنَّ / قَلِيلَ الْكُفْرِ
[٢٤ - ب] وكثيره سواء في استحقاق القتل واستيجاب
النار والتوبة مقبولة في قليله وكثيره فلا معنى
لزيادة الكفر إلا إبطان الكفر وإظهار الإيمان .
والله تعالى أعلم بكتابه وأسرار خطابه^(٢) .

عَلَّقَهُ مِنْ خَطِّ نَسْخَةٍ مُسَمِّعِهِ أَقْضَى الْقَضَاةَ
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن
إبراهيم القرشي لشيخه العلامة صلاح الدين
... المرحوم ... عبد الله ...^(٣) أبو عبد
الرحمان الحنبلي، تاب الله عليه وسلّم آمين .

دكتور محمد الحبيب الهيلة
الكلية الزيتونية - تونس

(١) آل عمران: ٩٠ .
(٢) بالهامش تعليق بنفس خط النسخ نصه: بلغ عرضنا بأصله .
(٣) بالأصل نحو أصاب أكثر اسم النسخ واسم الشيخ الذي كتبت له النسخة .